يوميات تبحث عن عنوان

بقلم محمد عبد الله الشفقي

رسالة الى فتاة مثقفة .
الاربعاء ١٧ اغسطس ١٩٦٠

عزيزتي :

الساعة الان تشير الى التاسعة والنصف مساء ، وانا قد عدت لتوي من الخارج ، عدوت اهرول لان السطور التالية كانت تطن في اذني طنينا لا هوادة فيه .. هرولت كي اصل الى المنزل ، الى مكتبي واوراقي وقلمي .. قبل ان ينقطع الطنين ، واشتريت لهذه السطور ـ خصيصا ـ قلما من الرصاص . اوصيت البائع ان يحضر لي قلما « طريا » ! تعرفين لماذا ؟ حتى ينساب على الورقة في سهولة ، حتى يلاحق كلماتي ، حتى يلاحق الطنين الذي يئز في اذني ورأسي وعقلي .

الشارع ، شارعنا ، صاخب جدا كما تعرفين ، هائج جدا ، الاطفال يصرخون ويتشاجرون ، واحيانا يلعبون ، وطفلة فيها صفات الزعامة نجحت في تكوين فرقة من المغنيات والمنشدات والراقصات . يجلسن في الصباح والمساء ، يا عزيزتي، يغنين ويرقصن. الزعيمة تزغرد والفرقة تزغرد ، ولكنها زغردة اشبه بالصراخ . سيأتي اليوم الذي تكبر فيه البنات وينضجن ، ويعرفن كيف يزغردن .

الشارع الصاخب الهائج لااسمعه الان ،لاني منصرف بوجودي كله الى هذه الاوراق التي اوجهها لك .

ثم .. المشكلة الخالدة عند كل من يريد ان يكتب !

المشكلة تبدا بعبارة متعثرة من اربع كلمات : « لااعرف كيف ابدأ .»

او من خمس كلما : « لا اعرف من اين ابدأ .. »

حسن ، انا لا اعرف كيف ابدا ، ولا من اين ابدا .

ولكني ، وانا في طريقي الى البيت ، قد سمعت موسيقى تنبعث من الراديو الموضوع في احد المقاهي . موسيقى اجنبية ، ولا اقول غربية، لاني احسست انها منبعثة من بلد في الشرق . آه ، كانت الموسيقى تعزف بمرح . « الموسيقى تعزف بمرح » !! اترى أين قرأت هذه العبارة! آه ، انها في ترجمة الدكتور علي الراعي لمسرحية تشيكوف « الشقيقات الثلاث » . وانت تعرفين تشيكوف لانك تحدثت عنه امامي اول امس . قلت انه انسان ، وانك قرأت حديثا احدى قصصه القصيرة الرائعة .. قصة فيها حصان .. أهي قصة « أسى » ؟ القصة التي يلعب فيها دور البطولة خراط الخشب جريجوري ؟ قلت لي : لا . ثم تذكرت انها قصة الحوذي المنكوب الذي يحاول ان يحكي لكل راكب عن بلواه ويبثه شكواه، والركاب لاينصتون ، لانهم متحجرون ، واخيرا لايجد الا الحصان فيحدثه عن آلامه كأنه انسان !

آه . انها قصة مؤثرة جدا ياعزيزتي المثقفة . لنعد الى الموسيقى التي تعزف بمرح . كانت الموسيقى المنبعثة من مذياع المقهى شجية عذبة لا اعرف عم تعبر ، لانهم علمونا في الكتب ألا نبحث عن معنى للموسيقى ! لا اعرف مؤلف المقطوعة ، ولكني اتذكر الان ذلك الحديث الذي دار بيننا عن الموسيقى بعد ان دار عن تشيكوف . معذرة ياعزيزتي . اريد ان اصحح هنا خطأ شنيعا : قلت لك ان مؤلف متتابعات من باليه جيانيه هو رحما نينوف ، الحق انه خاتشادوريان . فلقد أذيع اللحن مصادفة اول امس، في المساء ، وقدمته المذيعة وقدمت مؤلفه كأنما تؤنبني على جهلي ، وعلى اني اعطيتك معلومات خاطئة .

والحق ان الذي يعطيك ، انت بالذات ، معلومات خاطئة يستحق الاعدام . لانك تعشقين المعرفة ، والحقيقة وكل ماهو صادق . فمعذرة . ان متتابعات جيانيه لخاتشادوريان لا رحمانينوف ، معذرة ، فرحمانينوف يستبد بي هذه الايام ويسيطر علي ، ربما اثر ذلك الحديث الذي دار مع احدى « السميعات » للموسيقى الكلاسيك . اخذت تتحدث عنه وتؤكد لي ان اسمه الحقيقي انما ينطق على الوجه التالي : روخمانينوف. ومنذئذ اسميتها الانسة روخمانينوف ، مع ان اسمها الحقيقي ، لو تعلمين ،جميل جدا .. وقد تكون هذه الفتاة من الزمرة التي حدثتك عنها ، الزمرة التي لاتتذوق الموسيقى ولكنها تدعي انها تتذوقها .

اما انت فقد اعترفت « أهو تواضع منك ؟ » بانك لاتفهمين الموسيقى، وبانك تشعرين بصداع حين تستمعين اليها ، وبانك انفجرت ضاحكة في اول حفل سيمفوني ذهبت اليه . أهو تواضع منك ؟ أؤكد لك انك ستتذوقينها يوما ما .

ستتذوقينها يوم نكون معا ـ والى الابد . فهل توافقين ايتها العزيزة المثقفة ؟

مفاجأة ، أليس كذلك ؟ لقد كنت انا ، حتى اول أمس ، مجرد شخص تعرفينه ، لانه من بلدتك ، ولانه تخرج من نفس الكلية التي تخرجت انت منها ، ولانه شقيق صديقتك ، ولانك تقرأين بعض انتاجه ويقرأ بعض انتاجك . ولكنك لم تتصوري ان يصل الامر يوما الى عرض فحواه : ان نكون معا ـ والى الابد . أي ان نتزوج ... كما يقول عامة الناس .

أوه ... انا اعرف انك لاتقبلين الامور بكل بساطة . انا اعرف انك تدققين وتستفسرين وتفحصين وتستجوبين ، ليس هذا بغريب ، فانت مثقفة . ستقولين : ماالذي جعلك تختارني انا بالذات دون سائر الفتيات؟

فلاصرح لك الان بانني اكتشفت انني كنت اهتم بك « اهتماما لم اكن اعيه تماما ، اهتماما مترسبا في اللاشعور » منذ حوالي عشرة اعوام! تصوري ! لم يكن في هذا الامر مايدعو الى الغرابة ، فانا لا اقول هنا انني كنت احبك ، او كنت غارقا في عشقك الى اذني .

لا لا ، انني احاول هنا ان اكون عاقلا ، ومنطقيا الى اقصى حد . فهذه هي الطريقة التي تروق لك . وانا اريد الان ، وانا اعرض عليك الزواج ، ان افعل كل مايروق لك ، حتى ارضيك ، حتى أستميلك ، حتى اقنعك .

هل اخترتك لانك جميله ؟ صدقيني لا . هناك جميلات كثيرات ، هناك ـ معذرة ـ من هن أجمل منك « انا على يقين من ان هذا لن يغضبك » . هناك صاحبات الشعر الاصفر ، والوجه الاشقر ، والعيون الزرقاء ، تلك « المواصفات » التي يطلبها كثير من السذج . صديقي علي سيتزوج غدا « فاليوم الاربعاء » واحدة من هؤلاء .. وهناك صاحبات العيون الخضر ، والشفاه المنفرجة عن آهة مكتومة ، والخصر النحيل ، النحيل جدا ، الذي يكاد يضيع . « هل الخصر النحيل من مستلزمات الجمال ؟ ولماذا ؟ » وهناك جارتنا الحسناء ، شعرها يقهقه في عربدة ونزق، واحيانا يستنيم الى كتفها حين تجعله ذيل حصان. وهي تقف في الشرفة وقفة مسرحية ،وكأنهاجولييت تنتظر ـ في الشرفة ـ صعود روميو، يداها تستندان الى حبال الغسيل المعلقة ، يداها ايضا تمثلان ، فكأنها تريد ان تضرب بهما اصابع بيانو .

ياللبشاعة . لا يعجبني هذا . ان رؤوسهن ، ياعزيزي ، فارغة. انهن ـ يجلسن فيتحدثن في اشياء تافهة تثير ضحك واشفاقك . اليك

قائمة بالموضوعات الخالدة التي تدور بينهن : الافلام الجديده ، الاوكازيون ، شبكة فلانه ، فلان ، مولد سيدي فلان ، اغنية فلان ...الى آخره ياعزيزي الى آخره ...

اما انت فحين تتحدثين فانما لتذهلي من امامك وتجبريه على احترامك ـ حتى لو كانت الموضوعات السابقة هي مدار حديثك .

واوكد لك انك كدت تشعرينني بجهلي ، انا الذي ظننت انني قرأت ما فيه الكفاية . سأقرأ ، ارضاء لخاطرك ، جميع روايات نجيب محفوظ ، وكل ما كتبه يحيى حقي . فقد قلت انك تعتبرين عدم قراءتهما اهانة شخصية موجهة نحوك . وسأحاول ايضا ان افهم سارتر وسيمون دي بوفوار . سأحاول ، وامري الى الله ، قراءة « الوجود والعدم » ولكن ... ماذا لو انتظرت حتى نتزوج ونقراه معا ؟ اتريـن كيف احاول اغراءك واستمالتك ؟ ولكنك لا تنقادين هكذا بسهولة .

انك ستتساءلين مرة اخرى : لماذا اخترتني انا بالذات ؟

والجواب بسيط . لقد تلفت حولي فوجدت ان الكثيرات لا يصلحن لي ـ وان كن يصلحن لغيري ! الكثيرات يردن « زوجا متفرغا » ، زوجا يدور وجوده كله ، وسعيه ، وجهاده ، وتفكيره ، حولهن ! هل يعجبك هذا الصنف ؟ لا اظن . انا لا اريد ان اسعى واعرق لكي احضر في المساء سوارا ذهبيا لزوجتي . ليكون هذا السوار وسيلة فقط اما ان يكون غايتي ، فمحال . ولا اريد احدى هؤلاء الكثيرات ، حتى لا تنفتح بعد الزواج هوة عميقة بيننا ، حتى لا تقول لي وانا اقرأ في الهزيع الاخير من الليل : لماذا تقرأ ؟ حتى لا تقول لي ، وانا اكتب : ما هذا الذي تكتب ؟ حتى لا تقول لي وانا شارد الذهن افكر : لماذا تفكر هكذا ، وما هذا « الغم » ؟ حتى لا تطالبني كل ليلة بان نخرج لزيارة عائلة فلان ، او مشاهدة آخر فيلم لهتشكوك .

انت لست من هذا الطراز على الاطلاق . انك ستفهمينني مثلما افهمك انا الان . اما سعادتي مع الاخريات فلن تتعدى ـ على الاكثر ـ ايام الخطوبة .

وآه من ايام الخطوبة الزائفة ! تعالي تفرجي على لو حدث واخترت واحدة من هؤلاء وخطبتها . سنخرج معا بالطبع (ترى هل سيسمحون لك بالخروج معي اذا حدث وكتب لنا ان نعيش معا ؟) ستخرج هذا الواحدة معي ، جميلة نضرة كالزنبق ، حلوة كتفاحة طازجه .صوتها سيكون رخيما ، قبل الزواج على الاقل ! سأحاول بالطبع ان اصنع منها شيئا ، فانا احب بجماليون . وستشعر المسكينة بذعر ، لن تفهم ما سأقوله ، ولكنها ستتظاهر بالفهم . سأحدثها عن الكتب فتقول لي ،في لهجة ظافرة ، انها قرأت جميع الروايات البولسية . وسأحدثها عن فيلم « عندما تطير اللقالق » (ذكرت لي اختي انك شاهدت هذا الفيلم) فحدثتني هي عن «البنات والصيف» وعندما سأشتري لها فازة جميلة،من ذلك الطراز البدائي المعقد معا ، برسومها الشبيهة برسوم بيكاسو ، ستقول عني امام صديقاتها ان ذوقي مريض ، وانني غريب الاطوار ، وانها ستحاول ، بقدر الامكان ، ان تصنع مني انسانا جديدا . وستضع بجانب هذه الفازة « زهرية » براقة من التي تباع في الموسكي، وستضع فيها ـ هذه القاسيه ! ـ زهورا صناعية .

وقد تكون ايام الخطوبة لذيذه مع اية واحدة منهن ، غير انها ستنقلب ـ بعد الزواج ـ الى جحيم . اما العيش معك فلن يكون جحيما على الاطلاق ، وحتى لو استحال الى جحيم فسيكون جحيما ذا طابع جمالي ، سنستعذب هذا الجحيم مثلما نستعذب شعر دانتي وهو يحدثنا عن جهنم في « الكوميديا الالهية . » ونسيت ان اقول انك جميلة . ولكني لا اضع هذا في المحل الاول . دعيني اصفك .

عيناك اول ما يستلفت النظر فيك . عيناك ـ كما جاء في نشيد الانشاد ـ يمامتان . فيهما استدارة صريحة ، وبراءة ، وبساطة ، ودهشة: لكأنك تشعرين بالدهشة مما امامك ، من العالم ، من كل شيء ، لكأنك تقولين : « ياه » ! او « يا سلام » !

عيناك مفتاح وجودك كله ، وجمالك كله

ووجهك صبوح ، بسيط ، ينعم بالنضارة والبشر . إما جبهتك فغريبة ! اتعرفين لماذا اقول غريبة؟ لاننا تعودنا ان نرى الجبهات التي تتعقد احيانا وتتعرج ويعبر صاحبها عن تكشيرة . اما جبهتك فمنبسطة دائما .

تصوري ! انك لا تستطيعين التكشير في يوم من الايام . يا للروعة! دعيني احدثك عن صوتك . فانا ـ وربما لا تعرفين ـ اعشق الاصوات واتأثر بجمالها ، وكأنها شيء مجسد لا يسمع فقط ، وانما يرى . صوتك فيه براءة الاطفال ، فهو مرح ينساب في غير تثاقل او اصطناع للوقار . وليس فيه بحة الجميلات التافهات ، او رعونة الطائشات ، او غلظة القاسيات الفؤاد . صوتك حيوان مستأنس ، وعصفور حط في امان على فرع شجرة . وصوتك لا يعرف التوتر . انه مثل جبهتك يا جميلة.

والان .. ها انت تضحكين ضحكة تعبر عن عدم التصديق ، وتظنين انني أبالغ ، ثم ها انت تضحكين في تواضع . ولكني اقول الحق ، ولا شيء غير الحق .

والكل قد اجمع على انك متواضعة جدا ، وبخاصة حين تسمعين مديحا موجها اليك . تذكرين بالطبع كيف اثنيت عليك لمقاليك اللذين نشرا في احدى المجلات الادبية . وجدت في هذين المقالين اشياء افتقدها انا في مقالاتي . مقالاتي ، يا عزيزتي المثقفة ، تهتم ـ عند التعرض لاي انتاج ادبي ـ بالناحية الجمالية المحض ، وتهتم بالتكنيك ، والتعبير وكل ما يتصل بالبضاعة الكروتشاويه ، (انت تعرفين كروتشي يا عزيزتي وتكرهينه ، لانك لا تؤمنين بمذهب الفن للفن . الفن ، عندك ، للحياة . سنتناقش في هذه الموضاعات ونتشاجر عندما يظلنا سقف بيت موحد !) قلت لك انني اهتم بكل ما هو « كروتشاوي » ، اما انت فتسلطين الضوء على اشياء لا اراها انا ، على المشكلة التي يعالجها الفنان ، على ظروف الابطال الاجتماعية ، على ظروف الفنان نفسه ، على صلة العمل الادبي بالعصر .

أرأيت كيف يكمل منا الاخر . أرأيت ؟

....

اي عزيزتي المثقفة

يا من اتقدم ، في تعثر ، طالبا يدها

الساعة تقترب من الثانية صباحا ، وما زلت اكتب لك . وقد طالت الفترة اذ قطعتها زيارات بعض الاصدقاء ، فأخفيت هذه الاوراق لانها لك انت وحدك . ثم عدت اليها بعد خروجهم . ام كلثوم تغني من بعيد ، تناجي الليل في طوله وقصره . اسمع ، وانا اكتب لك الان في الشرفه، شخير جارنا . تصوري .. ان الجيران كلهم نائمون . وانت ؟ نائمة الان ؟ لا اظن . انك تلتهمين هذه اللحظة كتابا جديدا . صياح ديك يتناهى من بعيد ، ديك مخدوع يظن المصباح الكهربي تباشير صباح . عربات التاكسي تسير ، كالصراصير ، في الشوارع القريبة ، وتصفر . طفل وليد يبكي ، يريد ثدي امه . اسمع صوت امه من بعيد ، مخمورا ناعسا ، صوتها يسكت الوليد .

متى يكون لنا وليد ؟ وهل سيغدو مثقفا مثلك ؟ علم ذلك عند الله . قد نموت ـ بعد عمر طويل ـ فيحرق كتبنا او يبيعها ليخطب ود غانيه. وربما اهداها ـ في لحظة طيش ـ الى صديق يقرأ ، والواقع ان هذا الصديق لا يقرأ الا الجرائد والقصص البوليسية .

ولكن ، من يدري ، ربما كان مثقفا بالفعل ، فيا فرحي ساعتئذ ويا سعادتي . ساعتئذ لن احزن حين اعرف اننا سنموت في يوم من الايام . ستعتنين به ، اليس كذلك ؟ ستقدمين له اولا مجلات الاطفال . قد لا تعرفين انني احتفظ بمجلات الاطفال التي كنت اطالعها وانا صغير ، كان ذلك منذ ١٥ عاما تقريبا . انني احتفظ بها لابني . وابنك ـ اذا وافقت على الزواج .

ويقولون ان العريس هو الذي يعد المطبخ ولكني لن اعده ، اذ سأكون مشغولا باعداد (المعمل) ، المعمل الذي سأنتج فيه وتنتجين . اذا وافقت على الزواج فاحزمي من الان كل كتبك ومجلاتك وكراساتك ومذكراتك

ومقالاتك لان لها مكانا في هذا المعمل . وساحزم انا ممتلكاتي الفكرية ايضا . وسيكون بين ممتلكاتك وممتلكاتي لقاء ، لقاء حار جدا . وفي المعمل ايضا مكتبة ضخمة يا عزيزتي . واباجوره حالة ضخمة ، يحيط بها ، من الجانبين ، معقدان وثيران ، ولا بأس من اضافة مقعد صغير بعد ذلك لطفلنا . وبالقرب من الاباجورة ، والمقعدين ، والمكتبة الضخمة ، مدفأة وساحلم في ليالي الشتاء وانا انظر الى اللهب . وستجلسين القرفصاء تؤججين لهيب المدفأة . وفي المعمل ايضا تلفزيون ، ومذياع ، وجرامفون، وجهاز تسجيل ، ومعدات لعرض سينمائي صغير

سيكون هذا عالمنا ـ وهو العالم الذي احلم به الان .
العالم الذي احلم به الان ولا اتصور واحدة غيرك ، تحتله معي .

*

اواخر عام ١٩٦٠

واأسفاه !! .. ضاع كل شيء .. ذهب ادراج الرياح .. انت لست من نصيبي . هكذا عرفت من شقيقتي ، صديقتك .. انني اغبط هذا المخلوق ، واكاد احسده لولا اني امقت الحسد ... سبقني اليك ... هل فات الاوان تماما ؟

*

اوائل عام ١٩٦١

انه مثقف ايضا .. من المؤكد انني خسرت الجولة . انا نادم الان لاني تقدمت .. تطفلت .. كان يجب ان اعرف منذ البداية ... حتى لا اتطفل واقحم نفسي . لن اقول « ارجو لكما السعادة » فهذه العبارة ممجوجة جدا ، وتقال احيانا بطريقة زائفة على السنة شبان كثيرين . ساقول فقط : واحسرتاه ، لن اعوضك .

*

منتصف عام ١٩٦١

يبدو انني جننت وانني اكابر . انني اريد ان اعيد الكرة واحاول من جديد ، خاصة وان هذا الشخص لم يخطبك رسميا بعد .

*

نهاية عام ١٩٦١

آه .. انت تقدرينني وتحترميني .. هكذا قلت لاختي !

حسن .. فليسقط الاحترام . كنت اريد شيئا اخر . عزيزتي : ان الاحترام علاقة بين رئيس ومرؤوس ، مدرس وطالب ، ولم اكن اريده علاقة بيننا .

*

نهاية عام ١٩٦١

المصادفات العابرة تجمعنا معا ... الشارع مثلا .. فنتكلم ، نتبادل التحايا ونتحدث في اي شيء الا هذا الموضوع،لاننا نهرب منه . في كل مرة اكاد اتكلم ، احاول من جديد ، ولكن الشجاعة تخونني . وننصرف ويبقي بيننا شيء لا يقال .

*

اوائل عام ١٩٦٢

اخيرا استطعت ان اتكلم . لا فائدة !! ما قالته اختي تقولينه لي انت الان . لا فائدة .

معذرة .. لم اعد استطيع الاسهاب في الكتابة ... ماذا اكتب والله !!!!

*

ربيع ١٩٦٢

في الفترة الاخيرة اكتشفت فيك بعض العيوب . في الفترة الاخيرة كدت اقتنع بان العزوبية لذيذة .

واحسرتاه ! الا يعني هذا انني احاول ان اهرب من ذكراك وابرر لنفسي فشلي .

وداعا !

القاهرة — محمد عبد الله الشفقي

سلسلة الجوائز العالمية

صدر منها :

١ ـ المثقفون

رائعة الكاتبة الوجودية الكبيرة

سيمون دو بوفوار

الحائزة على جائزة غونكور الفرنسية

ترجمة جورج طرابيشي

في جزءين ـ ثمن الجزء ٧ ليرات لبنانية

٢ ـ السأم

اخر رواية للكاتب الايطالي الشهير

البرتو مورافيا

وهي الحائزة على جائزة فياريجيو الكبرى

الثمن خمس ليرات لبنانية او ما يعادلها

٣ ـ ابك يا بلدي الحبيب

تصوير رائع للمأساة العرقية في افريقيا الجنوبية

تاليف الان بيتون

ترجمة خليل الخوري

الثمن ٤٥ قرشا لبنانيا

منشورات دار الاداب ـ بيروت